3 — ان فكرة الخلود ، والملائكية التين استطاع بهما الشيطان ان يطغي آدم وزوجه وكذلك احساسهما بالخطيئة، وطلب العفو بالاستغفار، ومن ثم الرجوع والتوبة .. كل ذلك يتطلب لغة عالية ، ومنطقا رفيعا ، وبيانا اصيلا ، للتعبير منهـــا .

اذن فالحقيقة الاولى ان الله خلق آدم وسواه بيديه على أحسن صورة واكمل شكل ناظرا سامعا ناطقا مبينا ، وانه نطق من اول لحظة تنسم فيها نسيم الحياة وتعامل مع بيئته وناسه باسمى لغة وادق تعبير ...

فسبحان الذي يقول للشيء — اذا اراده — كن .. فيكون . وصدق الله اذ امتن على الانسان بقوله : « الم نجعل له عينين ، ولسانا وشفتين وهديناه النجدين » .

والسؤال الذي يتردد في هذا المجال : ما هي هذه اللغة التي تكلم بها الانسان الاول ؟!

اللغـــــة الام :

واوبة صغيرة الى التاريخ لنتصور من خلالها على شكل ممكن وقريب اول السلسلة البشريـــة منطلقين من آدم وهو ذكر فرد على الارض والى جانبه زوجه حواء الانثى الفردة .

فقد عاش آدم على الارض زهـاء 1.000 سنة ، وقد انجبت له حواء عشرين بطنا في كل بطن ذكر وانثى . وبلغت ذريته في حال حياته قرابة 40 الف نسمة ، في — بوذ — وقد اوصى قبل موته الى ابنه « شيث » . سار آدم في حياته على نهج الصحف التي نزلت عليه فهو اول نبي واول رسول واليه ترجع مبادىء علم كل شيء استلزمته حياة البشرية الاولى .. ومات قبل الطوفان بنحو 726 سنة ، بعد ان ادى الى البشرية ما يلزمها من دواعي البقـــاء والاستمرار والتحسن . وبعد ما افرغ اوصية العلم الذي اودعه الله عنده .

واما « شيث » الابن الوصي فقد ولد في العام 130 من حياة ابيه آدم . عاش في مكة يحج ويعتمر. وجمع الصحف التي نزلت على ابيه وضمها الـــى الصحف التي نزلت عليه وهكذا كان شان الانسان بارتباطه بالسماء ففي كل فترة شيء جديد وعلـوم جديدة تناسب الانسان في تطلعاته الجديدة فيضمها الى سابقتها ويسير على نهجها — وشيث النبي سار على هذا النهج ، وقام بالامر والنهي والدلالة علـى طريق السعادة . ويقال انه بنى الكعبة بالحجـارة والطين . وهي اول بيت وضع للناس ، ولعل بناء هذا البيت كان **المحرك الاول لفكرة البناء** التي اخذ بها الانسان من عصور سحيقة ، كما ان « شيث » هو **المعلم الاول** في هذا الموضوع . **والبناء الاول** . ولد له نفر كثير ولكن الوصية كانت في ابنه « آنوش » .

وتتابع هذه السلسلة التي هي اصل البشرية فيما بعد فآنوش ولد له نفر كثير واما الوصي فهو ابنه قينان الذي ولد في العام « 325 » من حياة آدم ، وولد لقينان نفر كثير منهم « مهلائيل » وهو الوصي وولد لمهلائيل نفر كثير منهم « يرد » وهو الوصي وولد ليرد نفر كثير منهم « اخنوخ » وهو الوصي .

واخنوخ هذا هو ادريس النبي سمي ادريسا لدراسته الصحف التي نزلت على آدم وشيـــث ، **وادريس هو اول من نظر في علم النجوم والحساب ، وهو اول من خاط الثياب ولبس المخيط** .. فهو اذن من تلك المحركات التي نبهت الدوافع العميقة في الانسان على درب البناء والتطلع الى المستقبل وتحســين الوسائل التي بين يديه واكتشاف ما خبىء من اسرار في هذه الارض وما يحيط بها .

ولد لادريس خلق كثير وكانت الوصية لابنـــه « متوشلخ » وكذلك متوشلخ اوصى لابنه « لمـك » . ولمك هذا هو ابو نوح الرسول . فكانت السلسلة من آدم الى نوح كما يلي :

آدم — شيث — آنوش — قينان — مهلائيل — يرد — ادريس — متوشلخ — لمك — نوح .

ولقد كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلها كانت على ملة الحق . وانما وقع الكفر والفساد في القرن الذي بعث فيه نوح بالانذار والوعيد حيث كثر الفساد وشاع الكفر والالحاد .

ولد نوح في العام 126 من موت آدم اي في العام « 1126 » من حياة البشرية وقد ارسل الى قومـــه ، ومكث فيهم يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر زمنا

طويلا ، فما آمن معه الا قليل فدعا دعوته المدمرة التي شملت كل مخلوق على الارض ، ما عدا اهل السفينة (وقال نوح : رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا . انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا — نوح 26 — 27 —) .

امر نوح ببناء الفلك وعندما باشر فيها سخر قومه منه لانهم لم يتصوروا ان بناء ما سيعوم على وجه الماء ، وبهذا الفتح الجديد في عالم النجارة والعوم بالمنجور على صفحة المياه يكون نوح احدى الحلقات في سلسلة العلوم واصولها التي بنت عليها البشرية ، وما زالت تبني حضاراتها المختلفة .

« واصنع الفلك باعيننا ووحينا ، ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون . ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ، قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم . حتى اذا جاء امرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين واهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن ، وما آمن معه الا قليل .. وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها ان ربي لغفور رحيم . وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سآوي الى جبل يعصمني من الماء ، قال لا عاصم اليوم من امر الله الا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . وقيل يا ارض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الامر واستوت على الجودي ، وقيل بعدا للقوم الظالمين . (هود) »

يتكلم علم الجيولوجيا عن اكثر من مرة طغت فيها مياه البحر والامطار الغزيرة على اليابسة فغمرتها كليا، وأحيانا تغمر اكثر اجزائها او بعضها ولكن مع اختلاف بين علماء الجيولوجيا حول تحديد تلك الازمنة الجيولوجية التي حدث فيها طغيان المياه على الارض وقرب تلك الحوادث من التاريخ البشري او بعدها عنه .. واذكر على سبيل المثال حادثتين مما يذكره علم الجيولوجيا :

1 — حدث طغيان بحري عام (طغيان العصر السينوماني) دلت عليه الاراضي الحوارية في مختلف الاصقاع . وذلك في منتصف الدور الحواري (الكريتاسي) وهو آخر ادوار الزمن الثاني الجيولوجي والذي تليه حقبة الحياة الحديثة .

2 — في دور الميوسين (الدور قبل الاخير من الزمن الثالث) تقلص البحر المتوسط الكبير (تيتيس) حتى اصبح اصغر رقعة من البحر المتوسط الحالي ، ثم طغت البحار على اليابسة فاتسعت رقعة البحر المتوسط واصبحت ابعاده شبيهة بابعاده الحالية واغلق من الشرق ، وذلك في البليوسين ، وهو الدور الاخير من ادوار الزمن الثالث — الملقب بحقبة الحياة الحديثة) دور بدء ظهور الانسان على الارض .

هذه المقالة الجيولوجية تتراوح بين تطلبي الظن واليقين حتى بين علماء الجيولوجيا انفسهم . واما الذي أومن به انا فهو ان الطوفان قد حصل ، وهو طغيان الماء على اليابسة بشكل عام ذلك الطغيان الذي دمر الحياة واغرق الاحياء والنبات ، ولا زالت الحفريات تكشف عن هياكل احياء تلك الحقبة من ناس وحيوانات وعن اشجارها ونباتاتها المطمورة.. وما البترول وتركيبه العضوي سوى دليل واضح على تلك الاجساد التي اغرقت بالماء ، وطمرت عوامل الانجراف . حيث ثبت بالتحليل وجود مواد في البترول تنتج مادة من تحليل يخضور النباتات او خضاب الدم .

كما ان الزمن الذي حصل فيه الطوفان قريب من زمننا هذا وعلى بعد (4.500 — 5.500) وهذا الرقم يكاد لا يذكر امام الارقام الخيالية التي يضعها علماء الجيولوجيا رغم اختلافها ، والذي دعاني الى اغفال ما قالوا وتثبيت هذا الرقم (4.500 — 5.500) هو :

1 — عدم اتفاقهم على رقم معين ، بالاضافة الى الفروق الشاسعة بين ارقامهم انفسهم .

2 — ما فرضه علي الخط الذي اتبعه في بحثي هذا من حيث البناء على الاخبار التاريخية فهي التي دفعتني لوضع هذا الرقم .

لنرجع الى بحثنا الاصيل فاقول :

يعتبر نوح ابا البشرية بعد آدم حيث ان الذين ركبوا معه هم ابناؤه واسرهم المؤمنون (قال عز وجل: وجعلنا ذريته هم الباقين .. ثم اغرقنا الآخرين . (الصافات) .

وقد أجمع المؤرخون ان لنوح اربعة اولاد هم : كنعان ــ سام ــ حام ــ يافث . اما كنعان فهو الغريق ، واما الثلاثة الآخرون فالى نسلهم ترجع البشرية .

وفى الحديث : الذي رواه اكثر من واحد من طريق (قتادة والحسن وسمرة بن جندب وعمران بن حصين) رضوان الله عليهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ولد نوح ثلاثة : سام وحام ويافث، فسام ابو العرب ، وحام ابو الزنج ، ويافث ابو الروم »

فسام اذن ابو العرب ، واليه ترجع اللغات السامية كلها ، وكان من اولاده ارم ــ وارفخشد ــ واشوذ ــ ولاوذ وعويلم .

وولد لارم بن سام : عوص ــ وغاثر ــ وحويل، وولد لعوص : غاثر بن عوص ، وعاد بن عوص ، وعبيل بن عوص . وولد لغاثر بن ارم : ثمود بن غاثر وجديس ابن غاثر . وكانوا قوما عربا يتكلمون بهذا اللسان المضري ، فكانت العرب تقول لهذه الامم : العرب العاربة لانه لسانهم الذي جبلوا عليه ، ويقولون لبني اسماعيل (ابن ابراهيم بن تارح بن ناحور بن ساروغ ابن ارغوا بن فالغ بن غابر بن شالخ بن قينان بن ارفخشد بن سام) العرب المتعربة لانهم انما تكلموا بلسان هذه الامم حين سكنوا بين اظهرهم . فعاد وثمود والعماليق (الكنعانيون) واميم وجاسم وجديس وطسم هم العرب (كما يقول التاريخ) .

ومن ولد ارفخشد بن سام الانبياء والرسل وخيار الناس والعرب كلها والفراعنة بمصر ومن ولد يافث ملوك الاعاجم كلها من الترك والخزر وغيرهم ، والفرس الذين آخر من ملك منهم يزدجرد بن شهريار ابن ابرويز ونسبه ينتهي الى جيومرت بن يافث بن نوح .

واما قحطان بن عابر الذي حكم اليمن والذي هو اول من سلم عليه بـ (ابيت اللعن) فكانت نسبته الى نوح كالآتي :

« نوح ــ سام ــ ارفخشد ــ قينان ــ شالخ ــ عابر ــ قحطان ــ يعرب .. وهكذا » ولقد ولد لعابر (وهو ابو قحطان) قحطان وفالغ ، وفالغ معناه قاسم وسمي بهذا الاسم لان الارض قسمت والالسن تبلبلت في ايامه .

وعلى ذكر بلبلة الالسن ، ذكر المؤرخون ان اللغة كانت واحدة بالنسبة لذرية نوح وقد تفرعت واختلفت فيما بعد ، وقد وردت عدة اسباب لهذا الاختلاف منها: ما يقوله ابن جرير الطبري في تاريخه (ص 210 ج 1)

«وكان مولد فالغ بعد الطوفان بمئة واربعين سنة فلما كثر الناس بعد ذلك مع قرب عهدهم بالطوفان هموا ببناء مدينة تجمعهم فلا يتفرقون او صرح عال يحرزهم من الطوفان ان كان مرة اخرى فلا يغرقون ، فاراد الله عز وجل ان يوهن امرهم ويخلف ظنهم ويعلمهم ان الحول والقوة له ، فبدد شملهم وشتت جمعهم وفرق السنتهم ، وكان عمر عابر (474 سنة) »

« وقال الحارث بن محمد : كان يقال لعاد في دهرهم عاد ارم فلما هلكت عاد قيل لثمود ارم ، فلما هلكت ثمود قيل لسائر بني ارم : ارمان ، فهم النبط ، فكل هؤلاء كان على الاسلام (اي التسليم لله الواحد) وهم ببابل حتى ملكهم نمرود بن كوش بن كنعان بن حام بن نوح فدعاهم الى عبادة الاوثان ، فعملوا فامسوا وكلامهم السريانية ثم اصبحوا وقد بلبل الله السنتهم فجعل لا يعرف بعضهم كلام بعض ، فصار لبني سام ثمانية عشر لسانا ولبني حام ثمانية عشر لسانا ولبني يافث ستة وثلاثون لسانا ، فقسم الله العربية عادا وعبيل وثمود وجديس وعمليق وطسم واميم وبني يقطن بن عابر .

وبهذا الموجز التاريخي نكتفي لنرجع الى موضوعنا الاساسي **ما هي اللغة الام التي تكلم بها الانسان الاول** ثم ورثها بنيه من بعده .

المعروف ان الاسرة هي المدرسة الاولى للانسان فمنها يتلقى اول ما يتلقى اللغة ثم العادات والتقاليد ثم الاخلاق والمثل .. الخ .

ومن السرد التاريخي الموجز الآنف الذكر نجد بالضرورة ان **السلسلة البشرية** ما بين آدم ونوح وبالتالي ابنائه (سام وحام ويافث) **كانت تتكلم لغة واحدة** .

اولا ــ لان الصلة وثيقة بين الاب (الموصي) والابن (الموصى له) .

ثانيا ــ لقلة العدد وغلبة الاجتماع في منطقة واحدة ــ الا ما ندر .

ثالثا ــ لطول حياة آدم وقربها من مولد نوح عليهما السلام (126 سنة) .

فاذا ثبت ذلك نرجع لنبحث عن تلك اللغةالواحدة التي سادت تلك الحقبة من التاريخ ودوت الفاظها على وجه البسيطة .

وبناء على ما تقدم : **فان آدم عليه السلام قد تكلم ــ اول ما تكلم ــ في الجنة قبل ان يهبط الى الارض ،** واجرى مناظرته في علم الاسماء مع اهل الجنة من ملائكة وغيرهم ، **فما هي لغة اهل الجنة يا ترى ؟ ..**

روى الطبراني والحاكم والبيهقي وآخرون عن ابن عباس وعن ابي هريرة بطرق مختلفة يعضد بعضها بعضا ، بهذا المعنى وبهذا اللفظ احيانا وقريبا منه ما يلي :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« احبوا العرب لثلاث لاني عربي ، والقرآن عربي ، وكلام اهل الجنة في الجنة عربي » (12) .

وعلى هذا يكون آدم قد نطق بالعربية ومن ثم تعامل بها عند ما هبط الى الارض ولقنها لبنيه من بعده (والله اعلم) .

واستمرت هذه اللغة يتناقلها الابناء عن الآباء حتى عهد نوح .

واذا كان سام بن نوح هو اب العرب ، فمن باب اولى ان يكون نوح اب العرب ايضا . وقد علم العربية لابنيه الآخرين حام ويافث ، **وما تخصيص سام بابوة العرب الا بمعنى ثبات اكثر فروعه على اللسان العربي** بعكس غالبية الفروع في حام ويافث التي تاثرت بالبيئات الجديدة وابتعدت عن موطن اللغة الام فتطورت كلمات وتكونت لهجات ثم تعمقت لغات على درب البشرية الطويل ويوضح هذا المعنى اكثر فاكثر حديث الرسول الكريم الذي يقول فيه : **« ليست العربية لاحدكم من ام ولا اب ، ولكن العربية هي هذا اللسان فمن نطق العربية فهو عربي » .**

ونخلص الى النظرية التالية :

العربية ام اللغات واصلها الاصيل ، وكل اللغات الآرية والسامية والحامية كان اصلها لهجات عربية تولدت عنها وتطورت فيما بعد بحسب البيئات والحاجيات ثم تعمقت كلغات مستقلة على مر العصور.

يقول الامام القلقشندي في موسوعته (صبح الاعشى) (13) عن اللغة العربية :

« اما فضلها فقد اخرج ابن ابي شيبة بسنده الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال: (تعلموا اللحن والفرائض فانه من دينكم) . قال يزيد بن هارون (**اللحن هو اللغة**) . ولا خفاء انها امتن اللغات . واوضحها بيانا . واذلقها لسانا وامدها رواقا ؛ واعذبها مذاقا ، ومن ثم اختارها الله تعالى لاشرف رسله وخاتم انبيائه وخيرته من خلقه وصفوته من بريته ؛ وجعلها لغة اهل سمائه ، وسكان جنته ؛ وانزل بها كتابه المبين الذي لاياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » .

« قال في صناعة الكتاب : **وقد انقادت اللغات كلها للغة العرب** ، فاقبلت الامم اليها يتعلمونها »

واما ظاهرة اختلاف الالسن وتعدد اللغات التي مر ذكرهما آنفا ، فلحكمة يريدها الله ؛ والاختلاف بحد ذاته آية من آيات الله ، قال تعالى ذكره :

« ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف السنتكم والوانكم . ان في ذلك لآيات للعالمين » (الروم 22) .

والاختلاف لا يكون الا من بعد الاتفاق ، والاتفاق كان على اللغة الام ، ومن ثم تفرعت وتم اختلاف الالسن .

« وما كان الناس الا امة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون » (يونس 19) .

ولعل هذا الاختلاف انما كان لتعميق التنافس من اجل الاصلح والافضل والاخير ولعدم اجتماع الناس على الفساد ..

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين » ، البقرة 251) .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ... » (الحج) .

الخـــاتمـــة :

واخيرا يجيب هذا البحث على ما ورد من تساؤلات في مطلعه ، وباليقين الثابت ان البشرية ترجع الى آدم (عليه السلام) وان آدم لم يكن له مقدمات في عالمي الجن والحيوان ، ولكنه كان على احسن صورة يتمتع بنفس الحواس والاجهزة التي يتمتع بها انسان اليوم ، ومنها النطق والبيان ، وقد أودع الله فيه من الاسرار ما يكفيه ليكون خليفته في ارضه ، كما ان الله سبحانه وتعالى قد علمه اسماء كل شيء مما سيقع تحـــت ناظريه ويديه ، فكان هذا العلم ذخيرة من الالفـــاظ والكلمات المدركة الجاهزة اخذ يطلقها على افرادها عند اللزوم ، وقد علمها ابناءه وذريته قبل ان ينتقل الـــى العالم الآخر ... وبغير هذا لا يقبل العقل ابدا ..

واما تعدد اللغات فهو ظاهرة طبيعية ومعقولة ترجع الى تفرع اللهجات عن اللغة الواحدة ، وبالتالي تعبقها على مر العصور ، وقد رافق ذلك استنبـــاط كلمات جديدة وتركيب الفاظ حديثة نتيجة لمسميـــات مستحدثة .

واما عن اللغة الام فكان الجواب عنها قائما على اساس الظن اليقيني او بتعبير آخر على قوى الظن، **وذلك لقولي ان العربية هي ام اللغات واصلها الاصيل**

ولقد بحث بعض علماء اللغات الحية في موضوع العربية وارجعوا كلمات كثيرة من اللغات الاخرى اليها من ذلك ما قاله (14) الاستاذ عبد الحق فاضل (نزيل المغرب العربي) :

1 ــ كلمة (ريف) في العربية معناها الارض القريبة من الماء ، وهذا يعني الساحل لان الســـاحـــل ايضا هو ريف البحر وشاطئه .

من كلمة ريف جاءت كلمة (Ripa) اللاتينية وهي بمعنى ساحل ــ ومنهـــا Riviera الايطالية : ساحل ــ ومنها Rivière الفرنسية: وهي بمعنى ساحل قديما وحديثا بمعنى نهر ــ ومنها Rive الفرنسية : ساحل ــ ومنهـــا River الانكليزية : بمعنى نهر .

2 ــ كلمة (صج) صوت اصطفاق الحديد منهـــا (صنج) آلة الطرب النحاسية . ومنها (صنجة) كفة الميزان ــ ومنها (سنجة) حجر الميزان . وبنفس المعنى جاءت كلمة (سنكة) الفارسيـــة وصيغت منها كلمة (سنك) اي الحجر ، ومـــن هذه كانت (Singan) السكسونية ــ و(Sing) الانكليزية وهي بمعنى يغني .

3 ــ كلمة (بلاط) تعني في العربية الارض المستوية الملساء . وهي ام الكلمات الآتية :

Platta اللاتينية بمعنى صحيفة .
Piazza الايطالية بمعنى ساحة .
Plate الفرنسية بمعنى طبق .
Plat الانكليزية بمعنى سطح .

وكلها تشترك بمعنى الاستواء والسطحية .

هذا نموذج مصغر عما قيل في (علم ارجـــاع اللغات الى اللغة الام) (الترسيس) . واما الوصول الى درجة اليقين المثبت في هذه الناحية بالـــذات فيحتاج الى التحقيق والتدقيق المستمرين .

---

1) عندما نقل احد البحاثين المحققين هذا النص الى كتاب له ، علق هنا بقوله : « هذا مجرد راي لهكسلي بوصفه ــ دارونيا ــ وهو طبعا يعز عليه ان يتراجع عن فروض دارون كلية امام ضغط الحقائق الجديدة ، ولكنه يتراجع بالفعل ، وهو يتظاهر بانه ثابت على اصول النظرية .. والانسان يحتـــوي الكيان الحيواني من الناحية العضوية ولكنه ليس حيوانا بالمعنى الذي تقوله الدارونية » .
2) هنا يظهر تارجح هكسلي بين ضغط الحقائق وبين مقتضيات الالحاد والمادية .
3) نحن ننقل نصوص هكسلي كما هي ــ بغض النظر عما نخالفه فيه في نشأة الانسان .
4) ص 123 ــ 124 من كتاب الخطر اليهودي ــ لمؤلفه محمد خليفة التونسي
5) ص 49 ــ 52 من كتاب التلمود ــ جمع عبد المنعم شميس .
6) طباعة دار المعارف بمصر (ذخائر العرب ــ 30)

7) الطبعة الاولى بالمطبعة الخيرية لمالكها ومديرها السيد عمر حسين الخشاب بمصر .

8) الكلام الموجود داخل الاقواس فى الاسطر الاخيرة من هذا النص ليس من اصل النص بل هو تفسيري .

9) روى الحاكم عن جابر قال : قرا علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة الرحمن حتى ختمها . ثم قال مالي اراكم سكوتا . الجن كانوا احسن منكم ردا . لما قرات عليهم هذه الآية : (فباي آلاء ربكما تكذبان قالوا : ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد) . (تفسير سورة الرحمن فى الجلالين)

10) كتاب شفاء العليل . لابن قيم الجوزية .

11) اخذت هذا الموجز بتصريف من تاريخ الطبري الجزء الاول من الصفحات الاولى حتى الصفحة 250 وعلى الاخص الصفحات 145 — 155 — 167 — 178 — 204 205 — 207 — 210 ، فليرجع اليها فى حالة الاستزادة .

12) كشف الخفاء — ج 1 ص 54 — للمحدث الشيخ اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي المتوفى سنة 1162 هـ .

13) الجزء الاول ص 148 .

14) بتصرف من العدد الخامس من مجلة اللسان العربي التي يصدرها المكتب الدائم لتنسيق التعريب (الرباط) . وقد جاء البحث تحت عنوان (علم الترسيس) .

اللغة والمجتمع الإنساني

أحمد عبد الرحيم السايح

مشيخة جامعة الازهر

اللغات هي : مجموعة من الرموز الاصطلاحية من حيث المفردات ، ومجموعة من القواعد النحويةالاتفاقية من حيث ضبط تلك المفردات . فهي لهذا لا تخضع لمنطق عقلي عام ، لانها اصطلاحية اتفاقية تقليدية موروثة او بتعبير آخر : ان اللغة من الامور الاعتبارية والامور الاعتبارية لا يشترط فيها ان تكون عامة بين الناس جميعا ، الا اذا اتفقوا على ما هو معتبر ، اما اذا فقد عنصر الاتفاق اختلف الناس فيما هو معتبر .

وحيث ان اللغة من الامور الاصطلاحية الاتفاقية التقليدية غير المتفق عليها بين الناس ، لهذا اختلفت اللغات فكان لكل لغة مفرداتها الخاصة بها ، وقواعدها ونظمها ، واللغة لشدة التاثر بها والتطبع عليها تبدو لمتكلميها وكانها من الامور الطبيعية ، ويبدو ما يخالفها شاذا غريبا لا يقبلونه الا في حدود معينة (1) .

النمو والتطور :

حياة الانسان لا تستقر على حال : علومه تتطور وافكاره تتسع وحضارته تتقدم وحياته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية هي الاخرى تتطور وتتقدم وتتعقد ، وهذا يعني انه يجد في حياة الانسان الجديد من المعاني التي تتطلب وضع الفاظ لها . لهذا يلجا الانسان الى لغته بمفرداتها وقواعدها يستعين بها ، يضع لهذه المعاني الفاظا او ينقل الفاظا من معانيها التي وضعت لها ، الى هذه المعاني الجديدة لتدل عليها فان لم يجد الانسان في لغته ما يسعفه لجا الى الاقتراض من لغات اخرى وقد يصقل ما يقترض بمصقل لغته لينتظم فيها وكانه منها ، ولا يقتصر الامر على الالفاظ بل يتعداها الى الاساليب فهي الاخرى تنمو وتتطور ، فاذاباساليب لا تعرفها اللغة في زمانها السابق تدخل في زمان لاحق ، كل ذلك لان حياة الانسان تنمو وتتطور واللغة اداة ووسيلة فلابد لها من ان تساير تطور الانسان والا ماتت لان حياتها بوفائها .

والذي يرجع منا الى صورته وهو طفل ، وصورته وهو شيخ طاعن في السن ، وصورته وهو شاب او صبي، او كهل ، يرى التغير والتبدل الذي اصاب كيانه واضحا فيما تنطق به الصور ، ولكن الانسان لا يلحظ هذا النمو والتطور والتغير والتبدل بل يلحظ نفسه وهو في يومه ، ويعلق في ذهنه عن امسه بعضه لا كله ، واللغات شانها شان الانسان : فهي تتطور وتتغير وتتبدل وكل هذا يحدث في البنية اللغوية في الامس الغابر واليوم الماثل .

وعمر اللغة لا يقاس بعمر الانسان ، اذ منها ما بين مولدها وعصرنا ، المئات من السنين فنصفها بانها حديثة وما هي بالحديثة ، واخرى ما بين مولدها وعصرنا الالوف من السنين ونصفها بانها قديمة ، لاننا اذا رجعنا الى اصولها ، او الى اصل الاصول ، كان عمر اللغة المئات من آلاف السنين بل الملايين منها ، فهل يمكن أن يلحظ هذا النمو والتطور والتغير والتبدل في هذا الامتداد الزماني؟ الحقيقة لا ، اما لماذا ؟ فلاسباب :

ان اللغة الام لم تخلف لنا من الآثار ما يدل عليها ، وبتطور الانسان تطورت لغته الى لغات وكان التطور تدريجيا فنسي الانسان امس لغته وعاش حاضرها، فانقرض ما انقرض وعفى الزمن على ما انقرض ، فنسيته الاجيال ، اما بالنسبة لاصول لغات عالمنا الحديث فالتي ولدتها ام وكانت ولادتها حديثة . عرف اصلها اي امها كاللغات المولودة من اللاتينية ، اما ما كانت ولادتها قديمة فقد نسيت امها ومن اللغات ما دونت مفرداتها وقواعدها ونظمها اللغوية في الاسفار ومنها ما خلف امسها آثارا فامكن ان نتبين بعض ـ لا كل ـ صور تطبيقها وتغيرها وتبدلها ومنها ، ما لم يدون في الاسفار ولم يخلف امسها الآثار فلا نعرف عنها الا صورتها الحاضرة ، ان لم تكن قد انقرضت ، ونعود الى لغات العالم التي تحتفظ بصور تغيرها وتبدلها وتطورها ونسال هل تعطي هذه الصور واقعا يطابق واقع اللغة وهي تتطور وتتغير وتتبدل في الامتداد الزماني لهذا التطور والتبدل ؟.

الحقيقة لا : لان هذه الصور نسبية تماما كصورة الشيء لا تعني انها حقيقة الشيء بكل كيانه ومقوماته وصفاته ، فكم من الالفاظ بادت ، وكم من الاساليب عفى عليها الزمن ، وكم من القواعد والنظم لم تصل اليها اجهزة المصور اللغوي فانساها الزمن .

وسؤال آخر يقفز الى الذهن ويتطلب الجواب :

ما هي اسباب النمو والتطور والتبدل والتغير والانقراض في اللغات ؟ والجواب على ذلك اننا نجد اهم تلك الاسباب فيما يأتي :

1 ـ النمو والتطور والتغير والتبدل في حياة الانسان نفسه وهذا يدفعه الى ان يضع لما يجد من جديد الفاظا واساليب ونظما لغوية .

2 ـ نقل الالفاظ الموضوعة للمعاني ، فتطاول الزمان يدعو الى وضع الفاظ جديدة .

3 ـ من المعاني ما يرتبط بعصر من العصور فاذا انقضى العصر لا تكون هذه المعاني من التراث الفكري والحضاري للجيل اللاحق فتهمل ثم تنسى باهمال الفاظها .

4 ـ وعدم وفاء اللغة بحاجة الانسان الى التعبير والتفاهم وحفظ ونقل وتخليد تراثه الفكري والادبي وازاء ذلك يضطر الانسان الى ان يغير ويبدل او يهجر لغته .

5 ـ التحريف والتغيير والتبديل في اللغة قد يستقر في دلالته فيخرج الاصيل حتى ينسى .

6 ـ ولما كانت اللغة ظاهرة اجتماعية اتفاقية غير مستقرة لهذا فقد تلد لغات او لهجات ، وقد تستقر هذه اللغات واللهجات المولدة وتهجر اللغة الام .

7 ـ تسرب الدخيل والمولد الى اللغة مع عدم الحاجة اليهما وبمرور الزمان قد يتغلب الدخيل والمولد على الاصيل .

8 ـ تجاوز الام واختلاط الشعوب ، سبب من اسباب تطور اللغة ونموها فتقترض اللغة من لغات الامم والشعوب ما تقترض مما هو ليس موجودا فيها .

9 ـ تعرض الامم للغزوات والنكبات يعرض احيانا الامم المغلوبة الى فقدان لغتها عندما تفرض الامم الغالبة لغتها عليها ، او تتاثر لغة الامم المغلوبة بلغة الامم الغالبة .

10 ـ انقراض الامم والشعوب يؤدي الى انقراض لغتها لان اللغات ترتبط بمتكلميها فاذا انقرضوا انقرضت .

11 ـ تشتت الامة والشعب يؤدي الى تاثر لغتها او لغته بلغات الامم المخالطة مما يؤدي الى مسخ لغة الامة المشتتة .

12 ـ بعض اللغات تمتاز بسهولة قواعدها ومرونة اساليبها ، وهذا قد يدفع بعض الامم الى هجر اناتها اذا كانت قواعدها واساليبها شديدة التعقيد .

نواحي التطور والتغير اللغوي :

1 ـ التبدل الصوتي للحرف والكلمة : وذلك بان يتغير صوت الحرف وعلى سبيل المثال حرف الجيم العربي يلفظ في لبنان وسوريا بصوت يختلف عنه في مصر ، وفيهما عنه في العراق ، وكذلك في مصر نفسها حرف الجيم يلفظ في الصعيد بصوت يختلف عنه في القاهرة ، وكذا حرف القاف والضاد ، او ان يتغير صوت الوحدة اللغوية .

2 ـ توسيع القاعدة اللغوية وذلك بأن يخضع اهل اللسان ما يقترضونه لقواعدهم اللغوية فيجرون عليه ما تجري عليه قاعدة لغتهم او توسيع القاعدة لتشمل الشاذ غير الخاضع لها .

3 ـ اقتراض المفردات : وذلك حين تعجز قواعد اللغة عن الوفاء بوضع مفردات جديدة او لا يكون ذلك عن عجز وانما تكون المفردات الاجنبية قد استقرت بحيث لا يمكن احلال مفردات لغوية موضوعة بموجب القواعد اللغوية للغة .

4 ـ استعارة اساليب او تراكيب لا تعرفها اللغة : ومن امثلة ذلك في اللغة العربية : ذر الرماد في العيون ، وعاش ستة عشر ربيعا ، ووضع المسألة على بساط البحث ، ولا جديد تحت الشمس ، وساد الامن في البلاد .

ومن امثلة ذلك ايضا ، الاصطلاحات الفنية والادارية : كهياة المحكمة وتشكيل المحاكم ، وانعقدت المحاكم ، وتعريفة الرسوم ، واللا سلكي ، واللا نهائي.

5 ـ تبدلات فرعية مختلفة : كالنقل والارتجال والاستعمال المجازي والنحت على غير قياس او سماع .

مقاييس اللغة الحية :

من اللغات ما توصف بانها : حية ، ومنها ما توصف بانها : ميتة ، والميتة هي اللغة التي تشتت الشعب الذي يتكلمها فخالط امما وشعوبا مختلفة اللغات وكان ان مسخت لغة الشعب المشتت ، وقد يطلق وصف الميتة على لغات تحتفظ بشخصيتها وذاتيتها ، ويتكلمها الملايين ، وهذا هو الذي يدعونا الى التساؤل ما هي المقاييس التي يقاس بها كون اللغة حية او ميتة ؟

مما يجاب به على هذا التساؤل : ان العلماء يختلفون في المقاييس التي تعتبر اللغة : لغة حية وللاختلاف اسباب : فمن العلماء من يعتبر المجتمع هو المقياس ، فاللغة التي يرتضيها المجتمع بمفرداتها وقواعدها واساليبها ونظمها ، هي اللغة الحية لان اللغة كما عرفها بعض الباحثين هي وسيلة للتعبير والتفاهم وليست غاية ، وللمجتمع ان يختار الوسيلة التي يرتضيها ، ويضيف العلماء الى ما سبق شرطا آخر اذا توفر في اللغة باضافة الى ارتضاء المجتمع كانت اللغة لغة حية ، وهي ان تكون اللغة سهلة في قواعدها مرنة في اساليبها ونظمها وعلى اساس هذا المقياس : للمجتمع ان يغير ويطور ويبدل في اللغة ما شاء الا في حدود ضيقة كان يجري تاليف وترتيب الكلمات وفق نظام ثابت ليؤدي الكلام المؤلف منها معناه العام .

ان الحياة تتطور وفي تطور مستمر، واللغة ينبغي لها ان تساير هذا ، وهي وسيلة وللمجتمع ان يختار تلك الوسيلة ولا ينبغي لتلك الوسيلة ان تقيد المجتمع وتقف حجر عثرة امام تطوره واحتياجاته .

وبعض العلماء لا يعتبر المجتمع هو المقياس بل يعتبر وفاء اللغة بحاجة الانسان الى التعبير والتفاهم وحفظ ونقل وتخليد آثاره الادبية والعلمية والفكرية والعقائدية هو المقياس .

فاللغة التي تفي بذلك لغة حية ولا يسمح هؤلاء العلماء لاممهم ان يغيروا ويبدلوا ويطوروا في لغتهم ، كيفما شاءوا ، بل لابد ان يكون التطور والتغير في اللغة يجري على اساس من قواعدها واساليبها اللازمة الاتباع ، وهؤلاء العلماء يربطون بين لغتهم وبين تراثهم العلمي والفكري والحضاري ، ويربطون بينها وبين عقائدهم ونظمهم وبينها وبين مشاعرهم واهدافهم في الحياة (2) .

نشاة اللغة الانسانية :

قد كثر القائلون والباحثون في نشاة اللغة الانسانية واصلها منذ اقدم العصور ولا زال علماء اللغات يدرسون ويبحثون ، ولقد عالجها فلاسفة

اليونان وعلماء اللغة العربية والاسلام واهتم بها الباحثون المحدثون من الاوربيين ومشى على آثارهم كثير ممن اخذ عنهم ، وخاصة العرب منذ القرن التاسع حتى اليوم وقد اختلفت وجهات النظر ونتج عن ذلك نظريات كثيرة منها : **ان اللغة الهام وتعليم من الله** : بمعنى ان الواضع للغات هو الله سبحانه وتعالى وقد بلغها الانسان بطريق الوحي والالهام او بايداع ذلك في طباعه .

1 ـ وذهب الى هذا الراي جماعة من المفسرين وقد حكى ابن جني عن بعض المفسرين في تفسير الآية « وعلم آدم الاسماء كلها » ان الله سبحانه علم آدم اسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات العربية والفارسية والسريانية والعبرانية والرومانية ، وغير ذلك من سائر اللغات، فكان آدم وولده يتكلمون بها، ثم ان ولده تفرقوا وعلق كل منهم بلغة من تلك اللغات فغلبت عليه ، واضمحل عما سواها لبعد عهدهم بها ، واذا كان الخبر الصحيح قد ورد بهذا وجب تلقيه باعتقاده والانطواء على القول به (3) .

وعن ابن عباس انه كان يقول : علمه الاسماء كلها وهي هذه الاسماء التي يتعارفها الناس من دابة وارض وسهل وجبل وجمل وحمار واشباه ذلك من الامم وغيرها ، وعن مجاهد انه قال : علمه اسم كل شيء ، وقال غيرهما : انما علمه اسماء الملائكة ، وقال آخرون : علمه اسماء ذريته اجمعين .

2 ـ وممن ذهب هذا المذهب : الاصوليون ، قال الآمدي حاكيا آراء العلماء في ذلك: اختلف الاصوليون فيه، فذهب الاشعري واهل الظاهر وجماعة من الفقهاء الى ان الواضع هو الله تعالى ، ووضعه لنا متلقى من جهة التوقيف اما بالوحي او بان يخلق الله الاصوات والحروف ويسمعها الواحد والجماعة ويخلق له اولهم: العلم الضروري بانها قصدت للدلالة على المعاني ، محتجين على ذلك بآيات منها قوله تعالى : « وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا » وهذا يدل على ان آدم والملائكة لا يعلمون الا بتعليم الله تعالى ، ومنها قوله تعالى : « اقرا باسم ربك الذى خلق، خلق الانسان من علق، اقرا وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ». واللغات داخلة في هذه المعلومات ومنها قوله تعالى : « ان هي الا اسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان » ذمهم على تسمية بعض الاشياء من غير توقيف ، وقوله تعالى : « ومن آياته خلق السماوات والارض واختلاف السنتكم » المراد به اللغات لا نفس اختلاف هيئات الجوارح من الالسنة . لان اختلاف اللغات ابلغ في مقصود الآية (4) .

3 ـ وذهبت طائفة من علماء اللغة الى مثل ما ذهب المفسرون والاصوليون حكى ابن جني في الخصائص عن استاذه ابي علي الفارسي المتوفى سنة 377 هـ قال : ان ابا علي رحمه الله قال لي يوما هي من عند الله واحتج بقوله تعالى : « وعلم آدم الاسماء كلها » (5) .

وايد ابن جنى هذا الراي فقد جاء عنه في الخصائص : « واعلم فيما بعد انني على تقادم الوقت دائم التنقير والبحث عن هذا الموضوع ، فاجد الدواعي والخوالج قوية التجاذب لي ، مختلفة جهات التغول على فكري ، وذلك انني اذا تاملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقة والارهاف والرقة ما يملك علي جانب الفكر ، حتى يكاد يطمح به امام غلوة السحر ، فمن ذلك ما نبه عليه اصحابنا ، ومنه ما حذوته على امثلتهم فعرفت بتتابعه وانقياده ، وبعد مراميه ، وآماده ، صحة ما وفقوا لتقديمه منه ، ولطف ما اسعدوا به ، وانضاف الى ذلك وارد الاخبار المأثورة بانها من عند الله عز وجل فقوى في نفسي اعتقاد كونها من الله سبحانه وانها وحي (6) .

4 ـ وقال ابو الحسين احمد بن فارس : ان لغة العرب توقيف ، واستدل بالآية « وعلم آدم الاسماء كلها » وتفسير ابن عباس ومجاهد وغيرهما . ولكن ابو الحسين بعد ان اطلق كلامه هذا الاطلاق رجع فخصص ما عمم فقال : ولعل ظانا يظن ان اللغة التي دللنا على انها توقيف انما جاءت جملة واحدة وفي زمان واحد وليس الامر كذلك ، بل وقف الله عز وجل آدم عليه السلام على ما شاء ان يعلمه اياه مما احتاج اليه في زمانه وانتشر من ذلك ما شاء الله ، ثم علم بعد آدم عليه السلام من الانبياء نبيا نبيا ما شاء ان يعلمه حتى انتهى الامر الى نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فآتاه الله من ذلك ما لم يؤته احدا من قبله (7) .

ثم قال فان تعمل لذلك اليوم متعمل ، وجد من نقاد العلم من ينفيه ويرده ، ولقد بلغنا عن ابي الاسود ان امرأ كلمه ببعض ما انكره ابو الاسود . فساله ابو الاسود عنه فقال : هذه لغة لم تبلغك. فقال ابو الاسود يابن اخي لا خير لك فيما لم يبلغني .

وجاء انه لم يبلغنا ان قوما من العرب في زمان يقارب زماننا اجمعوا على تسمية شيء من الاشياء مصطلحين عليه (8).

وقد كان في الصحابة رضي الله تعالى عنهم وهم البلغاء والفصحاء من النظر في العلوم الشريفة ما لا خفاء به وما علمناهم اصطلحوا على اختراع لغة او احداث لفظة لم تتقدمهم (9) .

قال الاستاذ مصطفى السقا بعد ان اورد اقوال اصحاب المذهب السابق : والذي يلوح لي ان اكثر ما استدل به اصحاب هذا المذهب ادلة دينية مع ان البحث نظري عقلي ، لا ديني فينبغي ان يستبعد منه الاستدلال بالآيات والاحاديث ونحوها ، على ان الآية الاولى التي هي معتمد القوم في الاستدلال ليست نصا في الموضوع وانما هي من قبيل الظاهر الذي يحتمل اكثر من وجه فقد يمكن تاويلها بان الله اقدر آدم على ان واضع عليها : قال ابن جني في الخصائص بعد ان اورد الآية وهذا لا يتناول موضع الخلاف: وذلك انه قد يجوز ان يكون تاويله : اقدر آدم على ان واضع عليها . وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة فاذا كان ذلك محتملا وغير مستنكر سقط الاستدلال به وقد كان ابو علي رحمه الله ايضا قال به في بعض كلامه.

وليس يعنينا بعد ذلك من الادلة التي استدلوا بها غير كلام ابن جني وخلاصته انه راى في احكام اللغة ودقة تنظيمها ما جعله يعتقد ان ذلك الاحكام لا يتاتى من غير الله ، وهذا الدليل ان لم يكن صريحا في التدين فهو مقنع بقناع الدين . فان كثيرا من اعمال القدماء كالاهرام وغيرها آية في دقة الصنع فهل نقول ان صانعها هو الله من اجل اتقانها . على ان ابن جني نفسه بعد ان ذكر كلامه الذي سقناه ، لم يلبث ان شعر بما فيه من ضعف فاستدرك على نفسه بقوله ، كذلك لا ننكر ان يكون الله قد خلق من قبلنا وان بعد مداه عنا من الطف منا اذهانا واسرع خواطر واجرا حنانا فاقف بين الخلتين حيرا واكابرهما فانكفيء مكثورا ، وان خطر خاطر فيما بعد ، يعلق الكف باحدى الجهتين ويكفها عن صاحبتها. قال الاستاذ مصطفى السقا : اما صدر كلام ابي الحسين احمد بن فارس فهو تقليد لائمة الدين ، وقد كان الشيخ محافظا شديد المحافظة وقد عدل كلامه فضيق دائرة الدعوى ، واما انكاره على العرب انهم اجمعوا على تسمية شيء من الاشياء مصطلحين عليه فيكفي في رده ما نقله غير واحد من ائمة اللغويين من ان رؤبة الحجاج وجرير وابن احمر الباهلي انفرد كل منهم بالفاظ لم يقلها غيره من العرب ، وانهم كانوا يرتجلون اللغة احيانا فهذا دليل على استمرار نمو اللغة حتى العصر الاموي والى انقضاء عصور الفصاحة العربية قبل ان يسيل سيول العجمة وتفسد السلائق باختلاط العرب بغيرهم الاختلاط الاكبر في العصر العباسي ، وليست الواضعة والاصلاح والتواطؤ لذى يريده القائلون به، الا ان يخترع اللفظ مخترع فيتقبله منه الناس ويستعملوه .

وخلاصة ما تقدم : ان القائلين بأن اصل اللغة توقيف ووحي يعوزهم الدليل العلمي لا الديني ولم نجد هذا الدليل فيما بين ايديهم من فروض واحتمالات .

وقد ذهب هذا المذهب من اليونانيين قديما الفيلسوف « هيراقليط » ومن الادبيين المحدثين طائفة على راسهم الاب «لامي» في كتابه «فن الكلام» ويستند الى نص الفقرتين 19،20 من الاصحاح الثاني من سفر التكوين وهما « والله خلق من الطين جميع حيوانات الحقول ، وجميع طيور السماء ثم عرضها على آدم ليرى كيف يسميها وليحمل كل منها الاسم الذي يضعه له الانسان فوضع آدم اسماء لجميع الحيوانات المستانسة ولطيور السماء ودواب الحقول » .

وهذا الدوليل فوق انه دليل ديني ليس فيه شيء من الاستدلال على اصل الدعوى وقد بان من هذا ومما تقدم ان هذا المذهب مجرد دعوى لا سند لها غير الآلة النقلية التي ليست نصا في الموضوع (10)

ولكن بعض العلماء توصل الى دليل عقلي ينهض قويا ليدعم الادلة النقلية وهذا الدليل : ان الانسان الاول لما كان نبيا فهو لابد له لكي يتفهم ما يوحى اليه ولابلاغ رسالته من لغة يستطيع بها تفهم وابلاغ رسالته ، والا تعذر عليه التبليغ وتفهم ما يوحى ، فالله سبحانه لما خلق ابا البشر واصل الخليقة آدم عليه السلام واسكنه وزوجه الجنة ، واوحى اليه هو وزوجته ان ياكلا من الجنة حيث شاءا وان لا يقربا

شجرة معينة وغير ذلك مما خاطبهم به . فلابد من غير شك انه علمهما معاني ما خاطبهما به وما اوحى به اليهما . بل الظاهر انه سبحانه علمهما ما يتخاطبان به فيما بينهما او مع الملائكة ، وذلك لاتمام النعمة عليهما في الجنة .

نعم من الجائز ان الله اودع في آدم وذريته الاولين قوة توسيع اللغة الاصيلة ثم تفرعت منها لغات بعد ذلك حسب التكتلات البشرية في اقطار المعمورة فكان لكل كتلة منهم لغتها ولهجتها ونغمتها الخاصة « 11 » .

المذهب الثاني :

ان اللغة تواطؤ واصطلاح : وخلاصة هذا المذهب ان الواضع للغة هو الانسان وان وضعه لها ، كان على مراحل ، ولقد ذهب الى هذا المذهب اكثر اهل النظر ، كما قال ابن جني في الخصائص . هذا موضع محوج الى فضل تامل ، غير ان اكثر اهل النظر على ان اللغة انما هي تواضع واصطلاح لا وحي ولا توقيف «12» .

ولعل المراد باهل النظر في كلام ابن جني المتكلمون عامة والمعتزلة منهم خاصة ، وكان ابن جني واستاذه ابو علي الفارسي منهم كما ذكر السيوطي في كتاب المزهر .

1 – حكى ابو الحسن علي بن محمد الآمدي في كتاب « الاحكام » ان البهشمية وجماعة من المتكلمين ذهبوا : الى ان ذلك من وضع اهل اللغات واصطلاحهم وان واحدا او جماعة انبعثت داعيته او داعيتهم الى وضع هذه الالفاظ بازاء معانيها ثم حصل تعريف الباقين بالاشارة والتكرار كما يفعل الوالد بالولد الرضيع وكما يعرف الاخرس ما في ضميره بالاشارة والتكرار مرة بعد اخرى محتجين على ذلك بقوله تعالى : « وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه » وهذا دليل على تقدم اللغة على البعثة والتوقيف (13).

2 – وزاد ابن جني على هذا المذهب توضيحا بقوله : ذهبوا الى ان اصل اللغة لابد فيه من المواضعة وذلك كان يجتمع حكيمان او ثلاثة فصاعدا فيحتاجوا الى الابانة عن الاشياء المعلومات فيضعوا لكل واحد سمة ولفظا ، فاذا ذكر عرف به ما مسماه ، ليمتاز عن غيره ، وليغني بذكره عن احضاره الى مرآة العين ، فيكون ذلك اقرب واخف واسهل، من تكلف احضاره، لبلوغ الغرض في ابانة حاله ، بل قد يحتاج في كثير من الاحوال الى ذكر ما لا يمكن احضاره ولا ادناؤه كالفاني . وحال اجتماع الضدين على المحل الواحد ، كيف يكون ذلك لو جاز وغير هذا مما هو جار في الاستحالة والبعد مجراه ، فكانهم جاءوا الى واحد من بني آدم فاوماوا اليه وقالوا انسان انسان انسان فاي وقت سمع هذا اللفظ علم ان المراد به هو الضرب من المخلوق ، وان ارادوا سمة عينه او يده اشاروا الى ذلك فقالوا : يد ، عين ، راس، قدم او نحو ذلك ، فمتى سمعت اللفظة من هذا عرف معناها وهلم جرا ، فيما سوى هذا من الاسماء والافعال والحروف ، ثم لك بعد ذلك ان تنقل هذه المواضعة الى غيرها ، فتقول الذي اسمه انسان فليجعل مكانه مرد والذي اسمه راس فليجعل مكانه سر ، وعلى هذا بقية الكلام ، وكذلك لو بدئت اللغة الفارسية فوقعت المواضعة عليها لجاز ان تنقل ويولد منها لغات كثيرة من الرومية والزنجية وغيرهما وعلى هذا ما نشاهده الآن من اختراعات الصناع لآلات صنائعهم من الاسماء كالنجار والصائغ والحائك والبناء وكذلك الملاح . قالوا : ولكن لابد لاولها من ان يكون متواضعا بالمشاهدة والايماء «14» .

وعلى ذلك اختلفت اقلام ذوي اللغات ، كما اختلفت انفس الاصوات المرتبة على مذاهبهم في المواضعات ، وتوسط قوم بين المذهبين فذهب ابو اسحاق الاسفرايني الى ان القدر الذي يدعو به الانسان غيره الى التواضع بالتوقيف ، والا فلو كان بالاصلاح فالاصلاح عليه متوقف على ما يدعو به الانسان غيره ، الى الاصطلاح على ذلك الامر ، فان كان بالاصطلاح لزم التسلسل وهو ممتنع ، فلم يبق غير التوقيف ، وجوز حصول ما عدا ذلك بكل واحد من الطريقين « 15 » .

وخلاصة الرد على اصحاب هذا المذهب في ان قولهم : باجتماع حكيمين او ثلاثة فصاعدا ، ليضعوا لكل شيء سمة ولفظا ، ليس الا مجرد خيال وحدس وظن وان الظن لا يغني من الحق شيئا ، ذلك الى ان القول بان الانسان وضع من اول الامر كلمات ذات مقاطع مركبة يجافي طبائع الاشياء اذ ان التدرج

والترقي من البسيط الى المركب ، هو القانون الملحوظ في نشأة الظواهر الاجتماعية التي من اهمها ظاهرة اللغة كما يلاحظ ذلك في نشأة لغة الطفل وتدرجها شيئا فشيئا .

واما الاستدلال بالآية « وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه » فليس فيه دليل ، لانه يجوز ان يكون التوقيف الذى قبل التواضع بالوحي من غير واسطة اللغة ، على اننا نقول ما قلناه آنفا ان الاستدلال بالنصوص الدينية فى مقام البحث العلمي لا يجوز ، ولذلك كله توقف جماعة من العلماء عن القطع باحد المذهبين فذهب القاضي : ابو بكر الباقلاني وغيره من اهل التحقيق الى ان كل واحد من هذه المذاهب ممكن بحيث لو فرض وقوعه لم يلزم عنه محال لذاته واما وقوع البعض فليس عليه دليل قاطع ، والظنون متعارضة يمتنع معها المصير الى التعيين ، ولذلك ايضا قال الآمدي والحق ان يقال ان كان المطلوب فى هذه المسالة يقين الوقوع لبعض هذه المذاهب فالحق ما قاله ابو بكر الباقلاني اذ لا يقين من شيء منها «16» .

المذهب الثالث :

ان اللغة نشات من الاصوات ويرى هذا ، العلماء الاوربيون المحدثون وسبق اليه علماء اللغة العربية قال ابن جني فى الخصائص : وذهب بعضهم الى ان اصل اللغة كلها انما هو من الاصوات المسموعات كدوي الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشحيح الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزيب الظبي ــ صوت تيس الظباء عند السفاد ــ ونحو ذلك ثم ولدت اللغات عند ذلك فيما بعد «17».

ويقول ابن جنى : وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل « 18 » .

ويرى الاب « انستاس ماري الكرملي » نفس هذا الراي ويقول : الكلم وضعت فى اول امرها على هجاء واحد متحرك فساكن محاكاة لاصوات الطبيعة «19» .

وهذا المذهب قال به جماعة من المتاخرين مثل : « ادم سمث » و « روكلر ستيورت » ونقل عنهم ان الانسان كان يعبر عما فى ضميره بالاشارات والحركات ، حتى تكاثرت فجعل يحكي الاصوات التى يسمعها ، فكان اذا اراد ان يشير الى الغراب قال: غاق ولما وجد حكاية الاصوات هذه تقي بالمقصود اعتمد عليها فحصلت منها اصوات اللغة ثم طرا عليها التركيب والنحت والحذف والتغيير وما شاكل ، فتالفت سائر الفاظ اللغة عن كل خاطر يخطر فى النفس « 20 » .

وبمقتضى هذا المذهب كان الانسان اذا اراد استحضار معنى الحصان عبر عنه بصهيله « حم حم » او معنى الكلب عبر عنه بمحاكاة نباحه « عوعو » وهكذا واذا اراد الدلالة على معنى قطع الغصن او قصفه نطق بالصوت « قط او قص » او معنى سقوط الحجر على الارض نطق بالصوت « طق » لما بين هذه الاصوات ومعانيها من المناسبة وقد قال الخليل : كانهم توهموا فى صوت الجندب استطالة ومدا فقالوا « صر » وتوهموا فى صوت البازي تقطيعا فقالوا « صرصر » ومن الطبيعي ان يكون التفاهم فى هذا الطور الاول بكلمات متقطعة لا بجمل ، وان هذه الكلمات كانت حكاية لاصوات « الاشياء او حكاية افعال ، اما الحروف التى تربط بين الكلمات فى الجمل فلم تكن نشات بعد « 12 » .

فانت ترى ان اللغة نشات بمحاكاة الانسان للاصوات الطبيعية وكانت المحاكاة فى اول امرها عضوية اي لم يقصد بها الاصوات الحاكية : التعبير عن المعاني المحكي عنها بها للاتصال بالغير ، ان الوظيفة الاجتماعية للغة لم تبرز فى اول الامر ، ثم وجد الانسان ان هذه الوسيلة مثمرة ونافعة وسهلة فى دلالتها على المعاني ، لهذا اصبح يطلق على الاشياء اصواتا هي حكاية لاصواتها الصادرة عنها للدلالة عليها وللاتصال بالغير ، فمعنى هذا ان استعمال الانسان للاصوات الحاكية اصبح استعمالا شعوريا اراديا هادفا ، وهنا يبرز العنصر الاجتماعي للغة : الرموز الصوتية ، ثم طرا على الاصوات الحاكية الدالة : التركيب والنحت والحذف والزيادة والقلب والابدال ليدل الانسان على معاني جديدة باصوات متمايزة وبعد ان التفت الى اهمية وفائدة الرموز الصوتية فى الدلالة على المعاني المصوتة وغير المصوتة ، المادية وغير المادية ، وكان هذا على مراحل ثم ان التصرف فى الاصوات الحاكية بالكيفيات المتقدمة يختلف باختلاف البلاد والقبائل والبيئات

الاجتماعية ثم اقرت هذه الاصوات المتصرف بها مع الزمن ، فبعد كثير منها عن اصله وهو الصوت الذى حاكى به الانسان الاصوات الطبيعية وهكذا نشأت اللغة «22» .

ويستدل اصحاب هذا المذهب على صحته :

1 ـ بانه اقرب المذاهب الى البساطة التى تقتضيها حياة الانسان البدائي وتقتضي التدرج والتطور الذى تقضي به طبائع الاشياء والذى يلحظ فى نشوء الظواهر الاجتماعية عامة .

2 ـ وبانه توجد مناسبة ملحوظة بين الاصوات وما تدل عليه من معنى وهذا امر ظاهر فى لغات الامم الاولية .

3 ـ وبانه شبيه بنشأة لغة الطفل التى تتدرج من الاصوات الساذجة المستطيلة الى الاصوات المقطعة، ثم يتدرج الى الكلمات ذات المقاطع المركبة اذا كملت اعضاء النطق عنده .

ولا يرد على هذا المذهب من النقد ما ورد من المذاهب الاخرى السابقة ولذلك كان اقرب المذاهب الى العقل ون لم يوصل الى اليقين فى نشأة اللغات وقد ارتضاه ابن جنى فى كتابه الخصائص حين قال : وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل .

والاصوات جمع صوت : وهو الجرس الذى ينتقل بالهواء الى حاسة السمع ، وتنقسم هذه الاصوات بحسب المصدر الى الذى تنبعث عنه الى قسمين : الاول الاصوات الطبيعية كصوت الريح او الرعد او النار، او جري المياه وانصبابها من علو الى اسفل ، وكاصوات الحيوان والطير والاصوات التى تسمع من الانسان فى احوال الانفعال كالانين والصراخ والعويل وكاصوات الفرح والطرب ونحو ذلك .

والثاني : الاصوات غير الطبيعية كاصوات الحركات والافعال التى يفعلها الانسان واصوات الآلات والادوات التى يستعملها كازيز الطائرات وجعجعة الطواحين وصوت المنشار فى الخشب ووسوسة النقود والحلي وصرير الابواب وصلصة الاجراس وما اشبه ذلك .

ويلحق بهذا القسم الاصوات البدائية التى اخترعها لدعاء الحيوان او لزجره ، وتنقسم الاصوات من حيث صفاتها الى اصوات ساذجة وهي التى تمتد فى استطالة بدون تقطيع كصوت زمارة الانذار عند انتهاء الغارات وكصفير الحيوان او الانسان من غير ترجيع ولا تكرير وهذا النوع ليس موضوع بحث اللغويين، والى اصوات متقطعة كالحروف التى يلفظها الانسان بالاعتماد على المقاطع والمخارج وكالاصوات الطبيعية التى سبقت الاشارة اليها فانها وان صدرت عن اشياء لا مقاطع لها كمقاطع الانسان فقد تمكن حكايتها بالالفاظ اللغوية الانسانية ذات المقاطع والحروف جرت عليها احكامها «23» .

وهناك من العلماء من يقرر ان اصل اللغة الاصوات الانفعالية للانسان التى كان يطلقها الانسان فى ظروف حياته البدائية وهي تختلف باختلاف حالاته النفسية والجسمية وباختلاف الظروف المحيطة به وكانت تلك الاصوات فى بدايتها عفوية لم يقصد منها الاتصال بالغير بل هي مجرد اصوات تصدر عنه كتعبير عن حالة من حالاته الانفعالية ، ولما ارتبطت هذه الاصوات بتلك الحالات الانفعالية نتيجة تكرارها عند تعرضه لها انتبه الى اهمية هذه الاصوات وفائدتها فاخذ يستعملها للاتصال بالغير وبهذا اصبح الصوت يخدم غرضا اجتماعيا وكان ان وسع مجال الصوت فى الدلالة على الاشياء تدريجيا وهكذا نشأت اللغة « 24 » .

المذهب الرابع :

يقرر كثير من العلماء المحدثين ان اصل اللغة يرجع الى جذور نفسية وفى هذا عدة نظريات :

1 ـ اصل اللغة رغبة الانسان فى ان يرى الواقع مرموزا اليه وفى ذلك نجد الاستاذ سابير Sapir وهو من المشتغلين بفلسفة اللغة لا يرى ان الحاجة الى التفاهم انشأت اللغة . بل يرى ان منشأها رغبة الانسان فى ان يرى الواقع مرموزا اليه او معبرا عنه بالرموز . ثم اكتشف مصادفة ان ذلك خير وسيلة للتفاهم « 25 » .

2 ـ اصل اللغة التعبير عن الحالات الانفعالية .

3 ـ اصل اللغة التعبير عن المعاني الكامنة وفى هذا يقول « ماكس » وهو من اشهر من قال بهذه

النظرية في القرن الماضي 1865 م « في الانسان قوة من شانها التعبير عما في ضميره بكلمات ملفوظة فكان الفكر اول ما يجول في دماغه كانه يقرع تلك القوة فتصون بالفاظ يفهم الفكر منها ، وهذه الالفاظ هي اصول اللغة ثم تقلبت عليها اطوار التعبير والتركيب فتالفت مفردات اللغة ، ولما تم الاستنباط درج عليها الاستعمال ، ولم يبق لهذه القوة من حاجة ، فاهملت وتضعضعت ولم تعد تحس كما يضعف السمع والبصر لقلة الاستعمال « 26 » .

من هذا يتضح ان اللغة انما نشات بسبب عوامل ودوافع نفسية بحتة ، ثم وجد الانسان الاول ان اللغة يمكن ان تحقق له فوائد كثيرة فانتبه لذلك وكان ان وسع من نطاقها وطورها لتخدم اغراضه التي يمكن ان تؤديها .

المذهب الخامس :

الاصل الاجتماعي وخلاصته : ان اللغة نشات بظهور البذرة الاولى لتكوين المجتمع ، وان الانسان كان مضطرا لان يتفاهم مع الآخرين لاسباب ودوافع كثيرة ، لهذا كان يطلق اصواتا في حالات مختلفة ، ثم اكتسبت هذه الاصوات صفة التباين النسبي حتى اصبحت لها دلالتها ، على معان معينة ، فاخذ يستعملها للتعبير والاتصال بالآخرين لتحقيق غرض ما ، فنشاة المجتمع هي سبب نشاة اللغة ، واللغة هي التي جعلت للمجتمع البشري وجودا انسانيا .

مراجع :

1 ـ انظر مجلة «النجف» العدد السادس من السنة الثانية ص 73 ـ العراق .
2 ـ المصدر السابق ص 85 ـ 86 .
3 ـ الخصائص لابن جني . الجزء الاول ص 39 ـ 40 مطبعة الهلال بمصر
4 ـ الاحكام في اصول الاحكام للآمدي ، الجزء الاول ص 105
5 ـ الخصائص لابن جني جـ 1 ص 39
6 ـ المصدر نفسه جـ 1 ص 45
7 ـ فقه اللغة للصاحبي ص 5 ـ بيروت
8 ـ المصدر السابق ص 6
9 ـ نفس المصدر السابق ص 7
10 ـ مجلة «المعرفة» العدد 3 من السنة الاولى ـ المملكة العربية السعودية .
11 ـ مجلة «النجف» العدد السادس من السنة الثانية ص 38ـ40 ـ العراق .
12 ـ الخصائص لابن جني جـ 1 ص 39 .
13 ـ مجلة «المعرفة»، السنة الاولى ، العدد 3 ـ السعودية.
14 ـ الخصائص لابن جني جـ 1 ص 41ـ42 .
15 ـ الاحكام في اصول الاحكام للآمدي جـ 1 ص 106
16 ـ مجلة «المعرفة» السعودية العدد 3 السنة الاولى .
17 ـ الخصائص لابن جني جـ 1 ص 44ـ45 .
18 ـ نفس المصدر السابق ص 45.
19 ـ دراسات في فقه اللغة ص 155 ـ العراق (الدكتور صبحي العالم)
20 ـ معجم «متن اللغة» جـ 1 ص 18 (الشيخ احمد رضا) ـ العراق .
21 ـ مجلة المعرفة السعودية الجزء الثالث السنة الاولى .
22 ـ مجلة «النجف» العراقية العدد 6 من السنة الثانية ص 50ـ51 ـ العراق .
23 ـ مجلة «المعرفة» السعودية السنة الاولى الجزء الثالث .
24 ـ مجلة النجف العراقية العدد السادس ص 51ـ العراق .
25 ـ اصول تدريس اللغة العربية ص 10 العراق .
26 ـ معجم متن اللغة جـ 1 ص 19 . والمزهر للسيوطي جـ 1 ص 36 .

تخطئة الصواب

الأستاذ عبد الحق فاضل

(الدار البيضاء)

كنت قرات في صباي في احد الكتب القديمة ان قولك (اسميت الشيء) افصح من قولك (سميته). ففرحت بهذه اللقطة استفدتها من ذلك الكتاب ، ودأبت على القول : اسماه ، واسموه ، وهو يسمي ـ بتسكين السين .. وصرت احور عباراتي في دروس الانشاء لكي اجد المجال فيها لاستعمال هذه الصيغ ، الفصحى على قول ذلك الكتاب .

ثم اتفق اني قرات في كتاب آخر ان قولك (أسميته) خطأ وان الصواب (سميته) بالتشديد ، فتعجبت وتحيرت .

ثم اطلعت مع الزمن على مجادلات بعض اللغويين ومهاتراتهم وافتئاتهم على اللغة ، وفرضهم على الخلق آراءا خلافية ، وتحريمهم اخرى جوازية ، وتسفيه بعضهم بعضا لمجرد المخالفة والمناكدة .

فتعلمت من ذلك ان الفصيح ما تكلم به فصحاء الناس ، بصريا كان مذهبه ام كوفيا ، ومقبولا عند بعض العلماء ام مرفوضا ما دام مقبولا عند الآخرين . اي اني اخذت بالقاعدة الدينية : يسر ولا تعسر .

وزادتني دراسة اللغة خبرا ، فتبين لي ان ما نسميه كلام العرب ، او العربية الفصحى ، انما هو اللغة التي دونها لنا المدونون ، اي لغة الجاهلية ، وان هذه اللغة لم تصلنا الا بعد ان طرات عليها تطورات وتحويرات في كل جيل ماض . واننا لو اطلعنا على اللغة التي تكلم بها القوم قبل الاسلام ببضعة قرون لوجدنا ان اختلافاتها عن اللغة الجاهلية التي وصلتنا غير قليلة . بل ان الاختلافات كانت كثيرة حتى عند ظهور الاسلام بين قبيلة وقبيلة في بعض التعابير مما سبب سوء التفاهم احيانا والفواجع احيانا ، مما دونه لنا الاسلاف .

واذا اعتبرنا ان الاقدم افصح من الجديد المستحدث فقد ارتنا دراساتنا الترسيسية ان بعض الالفاظ التي نسميها عامية اقدم من نظائرها الفصحى. اي افصح : وبعبارة اغرب ان بعض الالفاظ الفصحى مولدة او دارجة بالنسبة الى الالفاظ المسماة مولدة او دارجة .

وصفوة القول ان اللغة كائن حي متطور، لا يمكن ان يقف تطوره من حال الى حال الا بموته . وما دامت الاجيال الجاهلية قد استعملت حقها في التحوير والتطوير عفويا فمن حق كل جيل جاهل او عالم ان يستعمل حقه في ذلك عفويا وعمديا . ومن يقرا علم التعني (Semantics) (1) يعرف تاثير الاطفال والخدم والدهماء في تطوير اللغة جيلا بعد جيل ـ بالاضافة الى الشعراء والبلغاء .

وبينما هذا هكذا اذا بفئة من الناس يخطئوننا كلما تكلمنا ـ بحجة من الحجج المعجمية الواهنة ،

(1) اي علم دلالة الالفاظ او تطور المعاني . نسميه « التعني » من المعنى لا من العناء .

ويقترحون علينا بدلا من التعابير المستحدثة التي ترد على السنتنا تعابير اخرى لا ندري من اين جاؤوا بها، وهي ايضا مستحدثة ، من عند انفسهم ، وليس ثمة ما يرجحها على المستحدثات التي يخطئونها . بل ان بعضهم يخطيء صوابا صراحا ليفرض بدلا منه خطأ صراحا .

نفس الشيء :

بعثت ذات مرة مقالا الى مجلة معروفة وردت فيه هذه العبارة : « .. لصدر عنه نفس التصرف الذي صدر عنه .. ولسارت القصة .. الى نفس النهاية المحتومة » .

فما كان من المصحح الهمام الا ان قلب العبارة فجعل عاليها سافلها فصارت هكذا : « .. لصدر عنه التصرف نفسه الذي صدر عنه .. ولسارت القصة .. الى النهاية المحتومة نفسها » .

ولكان حذف هذه الفقرة من المقال احب الي من عرضها على انظار القراء بهذا السبك المضطرب القبيح .

لقد اعتبر المصحح ان الخطأ في عبارتي من الوضوح والبداهة بحيث يحق له ، بل يجب عليه ، ان يتطاول بقلمه فيصححه .

نعم ، كثيرا ما قيل لي ان (نفس الشيء) خطأ وان الصواب ان اقول (الشيء نفسه) . فاذا سالتهم عن السبب قالوا ان (نفسه) بدل من (الشيء) في الاعراب . فعندها اقول لهم ان ورودها (بدلا) في هذه الجملة لا يعني انها يجب ان تستعمل بدلا في كل جملة ولا يجوز استعمالها مضافة الى (الشيء) ايضا .. فان كون (متردم) مثلا مجرورا في قول عنترة العبسي « هل غادر الشعراء من متردم » لا يعني اننا لا يحق لنا ان نورد الكلمة مفعولا به فنقول – مع احترامنا للوزن – «هل غادر الشعراء متردما» .. وان كون (غفورا) اسما لكان في الآية « كان الله غفورا رحيما » لا يعني انه لا يجوز ايرادها خبرا (لان) في آية اخرى « ان الله غفور رحيم » .

ولا افهم كيف لا يجوز في منطقهم اضافة (نفس) الى (الشيء) ويجوز اضافتها الى الضمير التابع له (الهاء)!

ويقولون – وبالعجب – ان (نفس الشيء) لم ترد في كلام العرب ، فكنت اجيبهم ان كانت لم ترد في كلام العرب سابقا فقد آن لها ان ترد منذ اليوم ، فان تعبير (نفس الشيء) له استعمالاته وتعبير (الشيء نفسه) له استعمالاته .

ولست اعلم كيف انتشرت هذه الخرعبلة هذا الانتشار من مشرق العالم العربي الى مغربه ، فاصبح حتى المتمرسون من الكتاب يتجنبون على نحو واضح استعمال تعبير (نفس الشيء) في كتاباتهم ، ويقولون (الشيء نفسه) بدلا منه بالرغم مما في ذلك من ركاكة وتعمل احيانا .

انا شخصيا كنت مصرا على استعمال (نفس الشيء) حيثما استحسنت ذلك بصرف النظر عن ورودها او عدم ورودها في لغة العرب . لكن اتفق منذ مدة اعوام ان ابديت رايي هذا لبعض الاصدقاء فقام احدهم – صاحب الدار الذي كنا في زيارته – الى المعجم ، واذا القول بعدم ورودها في لغة العرب مكذوب من اساسه . وقد ضرب المعجم مثلا لاستعمالها بقوله « نفس الجبل مقابلي ».

فكيف حدث ان انتشرت هذه الازعومة هذا الانتشار بحيث صار يعتبر كل ما يخالفها خطأ ؟ لست ادري . لكن الذي ادريه ان الكثير من التخطئات لا مبرر له ، وما عليك عندما يخطئونك الا ان تتناول المعجم عند وصولك الدار . وسترى احيانا ان مخطئك هو المخطيء ، او ان المسالة جوازية يصح فيها الوجهان ، او اكثر من الوجهين !

اختلف شاعران ذات مرة في كلمة (الوداد) وردت في شعر احدهما ونطقها بكسر الواو فقال الآخر ان الصواب نطقها بضمه . فسالاني ان احكم بينهما ، فضحكت وقلت : الحقيقة اني كنت اظن الصواب نطقها بفتح الواو ! ورجعنا الى المعجم فاذا بها يصح نطقها بفتح الواو وضمه وكسره جميعا ..

مهمة ام هامة ؟

وسترى ان مراجعة المعجم مفيدة دائما ، ان لم تكن في الرد على معارضك ففي تاييد اعتراضه وتصحيح خطئك ان كنت مخطئا حقا .

قال لي احدهم قبل بضع سنوات ان (المهم) خطأ وان الصواب هو (الهام) ، وعلى هذا لا يقال : ذهب فلان في مهمة بل في هامة !

لكن تعبير (همه الامر) يعني اقلقه واحزنه ، او احزنه حتى اذابه ، ومن ثم صار (الهم) يعني الدوبان ـ حتى ذوبان الثلج . واما (اهمه الامر) فيعني اقلقه واحزنه ، ومن هنا جاء قولهم (اهمه الامر حتى همه) اي احزنه حتى اذابه . ومن معنى القلق قيل (اهمه الامر فاهتم به) ، وهكذا نشأت صيغ الاهتمام والهمة والمهمة ثم الاهمية .

واذا كان صاحبي قد راجع معجما (مهما) بعد افتراقنا فقد صحح رأيه ، والا فهو لا يزال يظن ان رأيي في حاجة الى تصحيح .

على ان (المهم والمهمة) قد صدر الحكم ببراءتهما ورفع الحظر عنهما اخيرا ، فقد سمعت من احد اساتذة العربية من انصار (الهام والهامة) يقول ان تخطئة (المهم والمهمة) خطأ ، وان الكتاب اخذوا يستعملونهما . ولا ندري من الذي حرم ولا من الذي حلل . الا ان الواضح هو أن المسألة كانت تنتهي على خير لو روجع المعجم من اول الامر .

لكن التحذير الذي لا نجد بدا من ذكره هنا هو الا تتخذ من المعاجم العصرية المختصرة حجة دامغة ، فكثيرا ما تهمل هذه المعاجم بعض معاني الكلمة او اشتقاقاتها ، بالاضافة الى انها لا تخلو من اغلاط لغوية ومطبعية .

استهدف :

من احسن ما توصل اليه القدامى من اللغويين العقلانيين قولهم ان ما قيس على كلام العرب فهو منه .

فالمعجم اولا لا يذكر للكلمة جميع صورها الاشتقاقية بل ما روي منها عن العرب فقط أي ما سمعه اللغويون منهم منها ، ولابد ان ما لم يسمعوه كثير . فاذا لم نجد في المعجم لاحدى الكلمات صيغة الفاعل او المفعول او الانفعال او التفعل .. فهذا لا يعني ان العرب لم يستعملوا هذه الصيغ من تلك الكلمة، وانما يعني ان اللغويين لم يسمعوها وحسب. ثانيا : حتى لو صح ان العرب لم يستعملوا بعض الصيغ لما كان معنى ذلك اننا لا يجوز لنا ان نستعملها بالمعنى القياسي الذي تدل عليه اوزان تلك الصيغ ، فلكل جيل حاجاته اللغوية ومحسناته التعبيرية .

ثالثا : انه ما من لغوي معاصر ـ مهما يكن معجميا ـ لا يستعمل بعض التعابير المستحدثة التي لم ترد على السنة العرب الاقدمين او وردت على السنتهم في غير معانيها الحاضرة ، مثل : التشريع والانتاج والفنان .. وبعضها مغلوط اصلا مثل : المشروع (مفرد المشاريع) والثلاجة والمفكرة والحكومة والدولة والدوائر (الحكومية) والمرسوم والرسمي والتشريفات والتقارير ومحرر (الجريدة)..

لقد بدا للمحدثين ذات يوم ان يقولوا (استهدف الامر) بمعنى رمي اليه او قصده ، غير ان هذا التعبير القياسي السائغ اختفى وحل محله (هدف الى الامر) .

وحجة الذين يخطئون (استهدف) هي ان العرب انما قالوا (استهدف الشيء) بمعنى ارتفع ، و (استهدف له الشيء بمعنى انتصب،لكنهم لم يقولوا، اي اننا لا نعلم انهم قالوا (استهدف الشيء) بمعنى نصبه هدفا او جعله نصب عينيه .

وجوابنا على هذا هو ان العرب لم تقل (هدف اليه) ايضا بهذا المعنى . فاذا كانت المسألة مسألة تحريم ما لم يرد في المعجم فان تعبير (هدف اليه) حرام مثل (استهدفه) . بل هو احرم لانه مؤلف من كلمتين بدلا من كلمة واحدة . وان كانت المسألة مسألة قياس واجتهاد فان الاجتهاد والقياس يعضدان صيغة (استهدفه) لان العرب قالوا (استخدمه) بمعنى اتخذه خادما ، و (استعمله) بمعنى اتخذه عاملا ، و (استكتبه) بمعنى اتخذه كاتبا ، و (استوزره) بمعنى اتخذه وزيرا .. فلماذا لا يحق للعرب المعاصرين وحدهم ان يقولوا (استهدفه) بمعنى اتخذه هدفا ؟

الشارع الرئيس :

سألني احدهم : هل الصواب نطق (العلاقات الدولية) بفتح الدال نسبة الى الدولة ام بضمه نسبة الى الدول ؟ فقلت له : كلاهما خطأ وكلاهما صواب .

والذي اعنيه ان النسبة الى الدولة خطأ عقلانيا، لان المعنى المقصود هو العلاقات بين الدول . واما النسبة الى الدول فخطأ نحويا . فمعلوم ان من مقتضيات القاعدة العربية (الجاهلية) اعادة صيغة الجمع الى الافراد وصيغة فعيل الى (فعل) ـ بفتحتين ـ قبل اضافة ياء النسبة . ففي النسبة الى القبائل يقولون (قبلي) بفتح الباء ، والى الربيع يقولون (ربعي) بفتحها كذلك .

وقد قال لي احد الاساتذة ذات يوم وهو يقرأ شيئا من كتاباتي «اسمح لي ان اصحح هذه الكلمة».

قلت « أية كلمة ؟ » .. قال « كلمةبديهي ، فانه يقال طبيعي من الطبيعة شذوذا لكن لا يقال بديهي من البديهة ، فالصواب بدهي » . قلت له « ان اهل الاختصاص من العرب في عصور الثقافة تاليفا وترجمة ـ اي العهد العباسي ـ قالوا بديهي كما قالوا طبيعي ، فان كانوا مخطئين فيعجبني ان اخطيء معهم » .

والواقع ان العرب القدامى نسبوا الى صيغة فعيل ايضا في بعض الاحوال دون ان يجردوها من الياء ، في مثل قولهم (الخرفي) و (الخريفي) دون تفريق نسبة الى الخريف ، و (المدني) للانسان و (المديني) للطائر ونحوه نسبة الى المدينة .

اما الجمع فلست ادري كيف استغنى العرب الاقدمون عن النسبة اليه بوجه عام ، لكنني ادري انهم كانوا اذا دعت الحاجة يخرقون هذه القاعدة غير الذهبية عند خشية الالتباس . ومن ذلك قولهم (انصاري) و(مدائني) نسبة الى الانصار والمدائن . بل انهم نسبوا الى المثنى ايضا فقالوا (بحراني) نسبة الى البحرين . (وهذه من المفارقات اللغوية فان اسم البحرين ينطق بالياء دائما والبحراني بالالف دائما) . وقياسا على هذا نقترح النسبة الى بلاد الرافدين ـ العراق القديم ـ بصيغة (رافداني) بدلا من القول انه (يمت الى ارض الرافدين) .

فاذا كان عرب الجاهلية ، اصحاب القاعدة ، انفسهم قد خرجوا على قاعدتهم عند اقتضاء الحال فما بالنا نحن نتحرج من ان نحذو حذوهم وحاجاتنا اوسع من حاجاتهم وكلامنا اكثر تعقيدا وتعرضا للالتباس من كلامهم ؟

ان قاعدتهم الحقيقية هي الشذوذ عن القاعدة عند الضرورة .

كثيرا ما يصادفنا تعبير (الشارع الرئيس) بدل (الرئيسي) . والذي دفعهم الى هذا فيما يظهر هو انهم لم يستطيعوا الحاق ياء النسبة بكلمة (الرئيس) بعد تجريدها من الياء ، لانها تصبح عندئذ (الراسي) ومعناها يلتبس بمعني العمودي ضد الافقي . فللخروج من هذا المازق صرفوا النظر عن ياء النسبة وقالوا (الشارع الرئيس) و (الفكرة الرئيسة) و (الامور الرئيسة) .. كانما هنالك رؤساء ومرؤوسون بين الشوارع والاشياء كما بين البشر . اي اننا نضحي بالمعنى ونجافي المنطق في سبيل التمسك بقاعدة غير لازبة .

... افليس الامثل ان نقتدي بعرب الجاهلية ونقول: الشارع الرئيسي والفكرة الرئيسية ، قياسا على المديني والخريفي .. ونستريح ؟ ام نحن اشد جاهلية من الجاهليين ؟

اذا فرض علينا ان نعيد كل كلمة الى اصلها المجرد قبل ان نلحق بها ياء النسبة كان علينا ان ننسب الى كل من (الام) و (الامة) و(الامم) بكلمة واحدة هي (الامي) . لكن المعاصرين حلوا بعض المشكلة يوم قالوا (الامعي) نسبة الى الامم ، ولا نستبعد ان يأتي جيل اقل اكتراثا بالقواعد التقليدية منا فيقول (الامتي) نسبة الى الامة ! .. كما يقول بعضهم اليوم (الحياتي) نسبة الى الحياة بدلا من (الحيوي) التي صارت تعني الجوهري والضروري.

اولم يقل العرب الاقدمون : مدني ومدبني ومدائني ؟

* * *

هذا نقوله مع الاعتذار الى الاساتذة الذين ورد ذكر بعضهم تنويها في هذه الكلمة ؛ فاننا لا نقصد الطعن باحد بالالماع الى مناقشات لغوية جرت لنا مع بعضهم ، وانما هي آراء لنا نظنها صائبة ونظن نشرها اصبح من الضرورات اللغوية ؛ لتصحيح موقف الكتاب من الكلمات الشائعة التي تصدينا لها ومن امثالها اولا ، ولاظهار مذهبنا في الاخذ بالقياس وضرورة الرجوع الى المعجم عند الاشتباه ومدى التزامنا بما ينص عليه المعجم ثانيا . والحكم للقاريء وللزمان على كل حال .

تطور الفكر واللغة في المغرب الحديث

الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله

عرف البربر كسائر البدو منذ اعرق العصور حياة بدائية لم تكن تخلو من مظاهر احتفظت بها قبائل صحراوية واطلسية الى الآن كالملكية الجماعية والاشتراكية الفلاحية والسكنى في اكواخ الطوب بالدساكر والاقتصار في الاكل على الكسكس والصيد وشرب الالبان والعسل والماء القراح ولبس الجبة والبرنس ووضع اكاليل الريش على الرؤوس واستعمال الحراب والاقواس والخناجر والدرقات الجلدية في الحروب وكان المغربي يرسم على الجدران صورا تمثل حياته اليومية في براعة فنية رائعة كما يتحلى النساء بالاسورة والعقود وتمتاز المراة بنقش الاواني الخزفية ونسج الزرابي في تعاريج هندسية وبرز الاطار السياسي القبلي في شكل جمهورية صغيرة يمثلها مجلس منتخب وقد طعمت الحضارة القرطاجنية الشرقية هذه المعطيات الاولية بعادات جديدة كالطربوش والقميص الفضفاض والتكحل والاختضاب بالحناء والاختتان (1) وربما حدت البربر الى التفكير في وضع احرف « تفناغ » على غرار الهجائية الفينيقية التي تكونت منها الالفبائية العربية اذا لم يكن البرابرة قد اقتبسوا ه البادرة مباشرة من الهيروغليفية المصرية في الجناح الشرقي لافريقيا الشمالية ويظهر ان اليهود النازحين من الشام وخيبر لم ينقلوا الى المغرب شيئا جديدا باستثناء الديانة الموسوية ونتف من العبرية لم تترك اثرا يذكر في اللهجات المحلية .

ولعل اول نواة حضارية عربية تلقاها المغرب بعد الفتح الاسلامي قد جاءته عن طريق القيروان التي بدات تنصهر فيها الحضارة الاموية بعد مرور ثلاثة ارباع قرن على الهجرة فاقيمت المساجد والدواوين والمسالح والدور الصناعية على غرار ما عرفته دمشق ءانذاك من روائع امتزج فيها العنصران الفارسي والروماني واذا اعتبرنا الصلة الوثيقة بين القيروان والمغرب قبل ان تزدهر بالاندلس الحضارة الاموية في اطارها الجديد امكننا القول بان الشام كانت الينبوع المشترك للحضارتين ما لبث ان تعزز بمدد مباشر في عهد الادارسة فاذا ما حاولنا التنظير بين عناصر الحضارة الاموية من نشاتها في الشام الى امتدادها بالاندلس لاحظنا وحدة مقومات العمران والبناء والزخرفة والنقش والثقافة والاجتماع والتراتيب الادارية والقضائية في اشكالها ومصطلحاتها الا ان الاندلس لم تتصل بهذه المعطيات قبل وصول عبد الرحمن الداخل عام 137 حيث قضى خمس سنوات بالمغرب الشمالي يحاول عبثا اقامة مملكة اموية لان افواج اليمنيين والقيسيين ظلت في صراع حدا البربر انفسهم الى النزوح الى الريف وطنجة واصيلا بين عامي 134 و 136 هـ ولم تكد الدولة الاموية الجديدة تستقر حتى وضع الادارسة بفاس اسسا عمرانية كانت وفرة مياهها وبساتينها وفنادقها وقيساريتها ومسجديها مظهرا خالدا لعاصمة دمشق .

(1) ماضي افريقيا الشمالية ـ كوتبي ص 148 .